الْأُسُسُ الْمَعْرِفِيَّةُ لِعِلْمِ اللِّسَانِيَّاتِ الْحَدِيْثَةِ قِرَاءَةٌ فِي الْمَرْجِعِ الْفِكْرِيّ.

أ/ عبد الرحيم البار
جامعة محمد خيضر- بسكرة-

ملخّص:

من أسمى ما أفرزته الحضارة الإنسانيّة الفكر اللّغوي؛ باعتبار هذا الأخير ملازما للوجود البشريّ منذ القدم، فهو ظاهرة اجتماعيّة مرادفة للتّجمهر العرقي الحضاري القديم والحديث على نحو الحضارة الهنديّة والإغريقية واليونانية وغيرها من الحضارات التي ذكرها التاريخ على اختلاف انتماءاتها العقائدية والعرقية، فالفكر مرابط للوجود وبه يجد الإنسان ضالته عبر التساؤل المعقود بفكّ الإبهام وإيجاد الحلول الصحيحة بشرح الألغاز التي تفرضها أواصل الطبيعة ومعطيات الحياة المادية المرافقة لها. ومن حاصل الانتباه الفكري القديم المعبّر على خلجان النّفس وإرهاصات الذات التنوع اللّغوي والتّعدّد اللّهجي؛ ومردّه الاختلاف في تفسير الموجودات، أو الإجابة عن التساؤلات التي يكون مصدرها الاختلاف البيئي والتنوّع الجغرافي. وكلّ ذلك يطرح معادلات مختلفة تفرز لنا أنظمة فكريّة متباينة شكلا ومضمونا؛ تمثّل الأصول القاعديّة للمرجعيّة الفكريّة لكافة اللّغات.

Abstract:

From the highest what was produced by human civilization linguistic thought; as the latter inherent in human existence since ancient times, is synonymous with ethnic mob ancient and modern civilization as Indian civilization and Greek, Greek and other civilizations mentioned by the history of different affiliations, ideological and ethnic social phenomenon, Construction of stalls for the presence and has finds man wandering through the questioning, held Loosen the thumb and find the right solutions to explain puzzles posed by nature and I continue to data material life associated with them. He holds the old intellectual attention crossing the bays and the harbingers of self-reliance of linguistic diversity; and due the difference in the interpretation of the assets, or to answer questions that have come from different environmental. All of this poses a different equations produce our intellectual systems varying in form and substance; represent basal assets of intellectual reference for all languages.

وُسِم الرّكب الحضاريّ اللّغويّ الحديث بحركة تطوّريّة رفدت جلّ مناحي اللّغة بدءا من النّظريّات والمناهج انتهاء إلى تأسيس المدارس اللّسانيّة؛ التي خاضت في ميادين اللّغات وفق ما تمليه رؤيتها المعرفيّة الخاصة، وراحت تبحث عن "كلّ شيء يتصل باللّسانيّات في القديم والحديث"[1]؛ فعزّز ذلك من ظهور التّيارات الفكريّة اللّسانيّة المتخصّصة؛ فكان ذلك بمثابة الثّورة الفكريّة في عالم اللّغويّات الغربيّة؛ فنتج عن ذلك التّنافس والتّسابق في دراسة اللّغات؛ كلٌّ وفق قناعاته الخاصة. ولحق هذا الرّكب التّصادم والتّجاذب المنهجيّ لينتهي الوضع اللّغوي الأوروبيّ في الفترة الحديثة إلى تأسيس المدارس اللّسانيّة.

ولا ريب أنّ التفكير اللّساني هو حاصل ما أسلفناه؛ كجزء من التفكير الإنساني ككلّ. فاللّغة هي المحرّك الأساس للتآلف البشري؛ لأنّها الرّابط التواصلي والوعاء الفكري الذي يجسّد حلقة التّواصل المعيشي بين الشعوب، ويمنحها الوصال في الحفاظ على مكتسباتها في ظل التّسابق الفكري والتنافس الحضاري بين الأمم. فكلٌّ سعى ويسعى جاهدا لسيادة مقدراته الخاصة والمحافظة على موروثاته ومكتسباته.

فاللّسانيّات هي أدق العلوم اللّغوية وأعلاها شأنا باعتبارها الأداة الحقيقية في دراسة المعارف والمكتسبات اللّغوية وفق مناهج علمية تمتاز بالدقة والانضباط الفكري الذي تنتمي إليه. فاللّسانيات (Linguistique) من "أحدث العلوم الإنسانية وأكثرها تقدّما في الغرب ومن ثمة كانت لها أهمية خاصة في نظريّة المعرفة وفي العلوم التي تبحث في السلوك الإنساني عموما وقد توصل العلماء في أوروبا وأمريكا إلى الكثير من الآراء والنّظريّات وأجروا الكثير من التجارب والدراسات الميدانيّة، ورغم ذلك كلّه فما زال علم اللّغة بكرا ومازال العلماء يخطّون في شعابه أولى خطواتهم يبحثون ويناقشون قضايا كثيرة ويدرسونها بطرق مختلفة ومناهج متباينة"[2]. فهي رهينة البحث العلمي الذي يختلف باختلاف الأفكار والنظريات والفرضيات، ولا شكّ أنّ هذا مبعثه اختلاف الرؤى الفكريّة للباحثين والمختصين ولذلك يصطلح على علم اللّغة الحديث 'اللّسانيات' بأنّه علم فتيّ لأنّ معترك التفكير فيه محتدم وغير ثابت باختلاف القراءات والنظريّات، ولا يزال لم يفصل في كثير من مسائله اللّغويّة ضمن عالم التفكير اللّساني الحديث والمعاصر.

وفي السّياق نفسه يقول الأستاذ عبد السّلام المسدّي معرّجا على علم اللّسانيّات: "العلوم الإنسانيّة تسعى جاهدة إلى إدراك مرتبة الموضوعية بموجب تسلّط التّيار العلماني

على الإنسان الحديث، ولمّا كان للّسانيّات فضل السّبق في هذا الصّراع، فهي الدّراسة العلميّة الموضوعية للّغة، وبهذا غدت جسرا أمام بقية العلوم الإنسانيّة من تاريخ وأدب وعلم اجتماع"[3]. فاللّسانيات: "تتخذ اللّغة مادة لها وموضوعها. ولا يتميّز الإنسان بشيء تميّزه بالكلام، وقد حدّه الحكماء منذ القدم بأنّه الحيوان النّاطق، وهذه الخصوصية المطلقة هي التي أضفت على اللّسانيّات من جهة أخرى صبغة الجاذبية والإشعاع في نفس الوقت؛ فاللّغة عنصر قار في العلم والمعرفة سواء ما كان منها علما دقيقا أو معرفة نسبيّة أو تفكيرا مجرّدا، فباللّغة نتحدّث عن الأشياء، وباللّغة نتحدّث عن اللّغة، بل إنّنا باللّغة نفكّر، فكان طبيعيا أن –تكون- اللّسانيّات مولّدا لشتّى المعارف فهي كلّما التجأت إلى حقل من المعارف اقتحمته فغزت أسسه حتى يصبح ذلك العلم نفسه ساعيا إليها"[4].

فالتفكير اللّساني مرّ بمراحل عدّة تمثّلت من فترة إلى أخرى باختلاف المناهج المعرفيّة التي يسعى كلّ منها إلى تفسير خصائص اللّغة ومعطياتها بحسب فرضياته الخاصة وهذه الميزة الأساسيّة لعلوم الإنسان بصفة عامة؛ لأنّ الفكر متغيّر ومتنوّع. فكلّ ذلك يرفع من مستوى التفكير اللّغوي ويزيد من قدرته في مواكبة حركات العلوم المتطوّرة والمسارعة في التقدّم العلمي والمعرفي والمنهجي.

فبات لعلم اللّغة الحديث 'اللّسانيات' القدرة الفكريّة المهمّة التي جعلته: "مركز الاستقطاب بلا منازع، فكلّ تلك العلوم أصبحت تلتجئ –سواء في مناهج بحثها وفرضيّاتها أو في تقدير حصيلتها المعرفيّة والعلميّة- إلى اللّسانيّات وإلى ما تقرّره من تقريرات علميّة وطرائق البحث والاستخلاص"[5] وغيرها من الإجراءات.

ولابد من أن نوضّح هنا مقولة 'اللّغة وعاء الفكر'، أو ما يصطلح عليه بالتعريف الآتي: "اللّغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر"[6]. الواضح من هذه العبارة أنّها توحي بمدلول واحد مفاده أنّ الكلمة مصدرها الفكرة، أو بمدلول آخر أنّ الكلام مصدره العقل (الفكر)؛ فالإنسان على اختلاف بيئته ونشأته يلجأ للّسان كوسيلة تعبيرية أدائية تؤدي دورا وظيفيّا غايته المنشودة تحقيق المراد الذهني من أفكار تراود الإنسان كتفسير الظواهر المادية الطبيعية التي تحيط به، ويُضاف إلى ذلك أنّه المعبّر عن هواجس النّفس البشريّة من تخمينات مرتبطة بالجانب الميتافيزيقي الذي تفرضه الذّات المبدعة الباحثة عن أواصل الارتباط بينها وبين ما يحيط بها، ولذلك يصح أن يطلق على اللّسان هذه التسمية: "اللّغة تلعب الدور الحاسم في

تشكيل الفكر، بل إنّها هي الفكر في حدّ ذاته"[7]. وهنا تمّ تصنيف اللّغة بحسب انتمائها المعرفي، أو بحسب دورها الوظيفي ومردّ ذلك اختلاف القراءات الفكريّة الصادرة عن باحثي اللّغة. ولنا أن نوضح ذلك في قراءتنا الوصفيّة للاتجاهات الفكرية التي انطلقت منها:

1-الاتجاه الواقعي: يؤمن هذا الاتجاه بأنّ اللّغة تشكّل كلّيات فكريّة تعبيريّة تعود في أصلها إلى حوادث سابقة مرتبطة بالواقع المعيشي الذي بدوره يسهم في تكوّن الواقع المعرفي، ونعبّر عنه بصيغة أخرى؛ بحيث أنّ "للكليات وجودا واقعيا مسبقا، وقد ظهر هذا الاتجاه عند أفلاطون في نظريته عن المثل"[8]. والمستنتج من هذا الوصف الخاص أنّ الكليّات اللّغوية المشكّلة من أفكار هي بحسب هذا الاتجاه مدلولات واقعية ملموسة في أساور البيئة وما يمليه الواقع المعيشي في حياة الإنسان.

2-الاتجاه التصوّري: يلحّ أصحاب هذا الرأي على أنّ المعرفة المدلولية اللّغوية هي وليدة الذات؛ أي أن الكلّيّات اللّغويّة مصدرها النّفس وليس لها ارتباطات خارجية مصدرها البيئة فهؤلاء نفوا دور المحيط في تكوين الفكرة وعزموا على الاعتقاد بأنّ وجود "الكلّيّات في النّفس قبل أي معرفة، ومن أنصار هذا الاتجاه 'آبيلارد' -الذي ظهر- في العصور الوسطى..وديكارت في القرن السابع عشر"[9].

3-الاتجاه الاسمي/التجريبي: وهو أوْضَحُ من الاتجاهات الأخرى وأعمقها تفسيرا للفكر اللّغوي وهذا الاتجاه يرى بأنّ الكليّات تظهر "مشيرة إلى مدلولات وهذه المدلولات في الحقيقة ليست سوى تجريديات يشار إليها بكلمات، فالكليّات أسماء تشير إلى تجريديات غير واقعية لأنّ المعرفة تتكون ابتداء من الجزئي. وهذا هو اتجاه الفلاسفة التجريبيين من أمثال 'لوك' و'باركلي' و'جون ستيوارت مل'"[10].

فالتّفكير اللّسانيّ شهد محطّات تفاعليّة على مرّ السّنين ولاشكّ من أنّ الفكر اللّسانيّ الغربيّ الحالي؛ هو نتاجٌ عن ذلك المخاض الفكري الفلسفيّ الإبداعيّ؛ الذي راح يفسّر ظواهر اللّغة كلّ بحسب قراءته ونظرته الخاصة توافقا مع ما تدركه ملكته الذهنيّة الفكرية وقدراته التفسيريّة لظواهر الطبيعة المرتبطة بالإنسان ولنا هنا أن نعرّج على أهم منابعه النّظريّة والفلسفيّة:

اللّسانيات كعلم لغويّ بارز استمدت وجودها من عدّة نزعات فكريّة وقراءات فلسفيّة مختلفة جسّدت لها النّمط الوجودي ضمن الحيّز الإنساني. ونقف هنا على مجموعة من

أهمّ النّظريات الفلسفيّة التي استقت منها اللّسانيات روح التمكّن والرواج والتفاعل الحضاري:

1-نظريّة التغيّر اللّغوي: "ترى كل الاتجاهات اللّغويّة أنّ قواعد اللّغات السابقة والحديثة منتقلة بالتغيّر والتطوّر وهذا يثبّت فكرة أنّ اللّغات يجب أن تدرس من خلال"[11] البحث في جذورها، فهذا عامل مساعد لضبط التراكيب اللّغويّة واستنتاج مظاهرها الفونولوجية والمرفولوجية المتنوّعة.

2-نظريّة المكوّنات الدّاخلية للّغة: "تنظر هذه النّظريّة إلى مكوّنات اللّغة على أنّها مسارعة إلى البساطة والتيسير، وتعتبر أنّ ذلك ميزة كلّ اللّغات كونها تنتقل من التركيب المركب إلى التركيب المبسط"[12]، ويرى 'راسك' أنّ كلّ اللّغات انتقلت من مراحل أولى تختلف عمّا هي في الصّورة الحالية على سبيل التمثيل انتقال مكوناتها من 'الظواهر المتصرّفة إلى الظواهر الفاصلة'، وهذا ما ذهب إليه المفكر اللّغوي 'راسك'.

3-نظريّة الاستعمال اللّغوي: يعتقد مؤسّسو هذه النّظريّة بأنّ الاكتساح اللّغوي السريع وسيطرة لغة على غيرها في دائرة اجتماعية واحدة؛ مردّه عامل الشهرة والتداول اللّغوي الشامل داخل البيئة اللّغوية التي تتمركز فيها لغات عدّة، فتكون قدرة اللّغة المستعملة هي التي تحدّد الغلبة للغة الأكثر تداولا واستعمالا.

4-النّظريّة السيكولوجيّة: أعطى هؤلاء تفسيرا نفسيا للظواهر اللّغويّة، وأكّد كلّ من 'هارمان أوسثوف' (Herman Osthof)، و'كارل بروغمان' (Karl Brugmann) "أنّ اللّغة في تكوينها تخضع لإرهاصات الذّات البشريّة باعتبارها كائنا بعيدا عن النّاس ولا يمكنها أن تتكوّن بذاتها دون المقدرات السيكولوجية بل لا تكون لها آثار حقيقية إلا داخل العمليّات النّفسيّة، ونستنتج هنا أنّ كل التغيّرات الطارئة على اللّغة ليست سوى إرهاصات نفسيّة"[13].

5-نظريّة الانتقاء: مجال هذه النّظريّة الدراسات الصوتية؛ حيث يصب أتباعها اهتمامهم على دراسة اللّغات الرومانيّة من الناحية الصوتيّة كدراسة التغيّرات الحاصلة فيها حيث دعا 'هوغو سخوخارت' (Hugo schuchardt) إلى دراسة التغيّرات الصوتيّة وفق مبدأ التذوق (Taste)، أو الموضة (Fashion)؛ اللّذان يسهمان في انتقاء المناسب من اللّغة.

6-نظريّة السيطرة أو التغلّب (Substratum theory): يُرجِع أصحاب هذه النّظريّة سبب سيادة اللّغات، وتطوّرها الاستعمالي وسيطرتها إلى 'تنحي' اللّغات الأخرى وأسباب هذا التنحي عديدة ومختلفة منها: العقائد والأعراق، والسيطرة والتبعية..

7-نظريّة الانتماء اللّغوي أو الأصل اللّغوي (Stammbaumtheorie): أسّسها العالم اللّغوي 'شليشر' (Schleicher)؛ وهدفه تحديد أواصل القرابة بين اللّغات الهندوأوروبيّة وضبط صور التّطوّر اللّغوي في المراحل الزّمنيّة المختلفة، فمونان (Mounin) "يرى بأنّ هذه النّظريّة تهدف إلى جعل التّاريخ اللّغوي يتناسق والنّظرة البيولوجية التطوريّة التي نادى بها داروين في فلسفته الفكريّة"[14]، فاستطاع أن يحدث ضجة كبيرة بفكرته التصوّريّة التي راجت في كلّ العلوم.

8-نظريّة التفرّع (Wellen théorie): تعود هذه النّظريّة إلى 'جوهانس شميت' (Johannes Schmidt) وهي تبحث في انتشار اللّغات في المعمورة على اختلاف الفترات الزمنية؛ فهي ترى أنّ اللّغات تتشعب شيئا فشيئا وتتسع الهوة تدريجيّا بين اللّغة الأصليّة واللّغات المتفرعة. ويلحظ على هذا الاتجاه اهتمامهم بالبعد اللّغوي الجغرافي باعتبار أن اللّغات وتغيراتها الحاصلة تنتشر من منطقة إلى أخرى، وهذا في نظرهم يؤكّد تدخل عامل التنّوع الجغرافي العالمي.

9-نظريّة المكوّنات الصوتيّة: يجزم أتباع هذه النّظريّة على وجود عوامل داخلية قديمة تسهم في إحداث التغير الصوتي باعتبار أنّ العجز عن التعبير، وإحداث تواصل كامل ومتبادل كان يقتضي دخول عناصر تتحكم في العمليّة الصوتيّة بصورة لا إرادية كدخول عامل الحذف أو عامل الاستبدال على سبيل التمثيل وأسّس لهذه النّظريّة المعرفية كل من 'ويسبرسن' (Jespersen) و'ويتني' (Whitney).

10-النّظريّة الفيزيولوجيّة: تقدّم نوعا جديدا من التفسيرات، "فهي ترى أنّ التغير اللّغوي يعود إلى تغير في تكوين سمات الإنسان، وتعاقب الأجيال البشرية على مر العصور حيث يرى 'هارمان أسثوف' (Hermann Osthoff) أنّ هناك تغيرات فيزيولوجيّة عديدة طرأت على كل أعضاء الجهاز النطقي (الصوتي) عند الإنسان منذ القدم وهذه التغيّرات كانت السبب الوحيد والمباشر في التغير اللّغوي فأصحاب هذه الرؤية نفوا فكرة

الثبات للشكل الفيزيولوجي لجهاز النّطق وبالتالي هذا ينفي ثبوتية اللّغات وأنها بهذه الكيفية تكون متغيرة"[15].

11-النّظريّة العلميّة الرياضيّة: تعتقد هذه النّظريّة بأنّ كل ما يرتبط باللّغة من النّاحية الصوتيّة، أو التركيبيّة له أبعاد علميّة مثله مثل باقي العلوم الأخرى التي تدرس وفق منوال '(الحساب والإحصاء) و(المسلّمات) و(الفرضيّات) و(الدوال)؛ فهؤلاء أرادوا الجزّ بعلم اللّسانيّات في حقل (الدّقة الرياضية) تيمّنا بـ(العلوم الدقيقة الأخرى)، وهذا ما يتضح عند دوسوسير وتشومسكي وغيرهما.

12-النّظريّة الاجتماعيّة: معتنقو هذه الوجهة يؤكّدون على أنّ المجتمع هو الأساس في تكوين اللّغة وضبط ركائزها، وهو في اعتقادهم قمة (البعث اللّغوي)؛ لأنّ البيئة الاجتماعية هي المكوّن الأساس لشخصية الإنسان انطلاقا من أفكاره، وسلوكياته المختلفة. وبالتالي لا نستطيع أن ننفي علاقتها بالوجود اللّغوي؛ فهي بلا شكّ منطلق أيّ تغير حاصل للّغات سواء على الجانب التركيبي أو الجانب الصوتي.

13-النّظريّة السلوكيّة: أصل هذه النّظريّة يعود إلى أعمال عالم النفس الأمريكي 'واطسون' (Watson) الذي أسّس لعلم النفس السلوكي؛ فلا يكاد يخلو بحث من الأبحاث العلميّة، أو توجّه من التوجّهات اللّسانيّة إلاّ وظهرت عليه آثار واطسون الفكرية وربّما على سبيل التمثيل نجدّ من المتأثرين 'بلومفيلد' و'تشومسكي' وغيرهم ممن تأثّروا بنظريّة علم النفس السلوكي.

وقد قسّم الباحث اللّغوي عبد السّلام المسدّي إرهاصات فلسفة اللّغة وعلاقتها العامة بفلسفة المعرفة إلى ثلاثة أعمال مثّلت مراحل التجدّد والتأثير في اللّسانيات، وهي:

1-"إصدار موسوعة 'لا بلياد' لمجلدها الخاص بـ(المنطق والمعرفة العلميّة) الذي قدّمه 'جون بياجيه' سنة 1967م بمساعدة 'لا يو بوستال""[16]، ومن أهم نقاط البحث فيه:

-تطرّقوا إلى أصول الفكر اللّساني الغربي الحديث وحدّدوا مبادئه وانطلاقاته.

-"أجروا مقارنة معرفيّة بين مراحل التفكير اللّسانيّ وبين ما تمليه النظريّة التوليديّة"[17].

فقد بحثوا في "الأصول الأنطولوجيّة والإبستيمولوجيّة والفلسفيّة التي وجّهت اتجاهات المدارس اللّسانيّة معزولة عن السياقات التاريخيّة والجغرافيّة التي وقعت فيها"[18]. وخلصوا إلى الوقوف عند القضايا التاليّة:

أ-مفهوم العلميّة كخاصيّة حديثة في اللّسانيات.

ب-تحديد مستوى التجريد في دراسة الظواهر اللّغويّة.

وفي نظرهم أيضا أنّ فلسفة اللّغة توصّلت إلى اعتماد اللّسانيات على ثلاثة قراءات:

-"القراءة التجريبيّة (Empiricism): تقوم على اعتبار أنّ المعرفة العلميّة وليدة الخبرة.

-القراءة الوضعيّة (Positivism): تطبّق نظريّة الملاحظة فأيّة فكرة لا تكون مفيدة ما لم تثبت صحتها بالملاحظة.

-القراءة العقلانيّة المنطقيّة (Rationalism): يعتمدون مبدأ الحدس والاستبطان في دراسة الظاهرة اللّغوية"[19].

2-تمثّلت في المؤتمر الذي نظّمته الأكاديميّة الدوليّة "لفلسفة العلوم بالتعاون مع المركز الدولي للإبستيمية التكوينيّة وذلك في جنيف خلال شهر سبتمبر 1970م:

أ-درسوا فيه قضايا التفسير في علم اللّسانيات.

ب-دأبوا إلى إرساء الخلفية المعرفيّة لكل نظريّة لسانيّة".[20]

3-"دراسات مركز 'روايامون' للأبحاث اللّغويّة الصادرة في أكتوبر 1975م:

أ-تطرّقوا إلى دراسة نظريات التكوين في اللّسانيات.

ب-وبحثوا في أصول اللّغات وعلاقتها بعلوم الإنسان"[21].

ومن أهمّ الكتب التي ألفت في هذا المجال ودارت مضامينها حول قضايا اللّسانيات وفلسفة المعرفة نذكر:

-كتاب اللّغة والفكر لناعوم تشومسكي صدر عام 1968م يقول الأستاذ المسدي معلّقا على هذا العمل: "هذا الكتاب يمثّل وقفة حازمة من لدن رائد من رواد اللّسانيات المعاصرة يلخّص فيها إنجازاته"[22].

-وقد ترجمت محاضرات تشومسكي التي ألقاها عام 1987م في 'جامعة أمريكا الوسطى' في 'ماناجوا' على يد الأستاذ حمزة المزيني ونشرتها دار 'توبقال' المغربيّة سنة 1990م تحت عنوان 'اللّغة ومشكلات المعرفة'.

وحين نعرّف الفكر اللّساني المعاصر؛ فإنّنا نجد أنفسنا أمام مقدّرات الحضارة اللّغوية الغربيّة؛ باعتبارها القوّة الضّاربة في أحضان الدّراسات اللّغوية الحديثة بغضّ النّظر على

خصوصيّات الغير ومكتسب حضارتهم الخاص، فقد واكب الفكر اللّغوي الأوروبي الحديث حراك العلوم الأخرى، ولحق بركب الثّورة العامّة التي طالت جميع الميادين والتي لم يستثن مفجّريها كافة المجالات المختلفة.

فأفضى ذلك نمطا تفسيريا علميّا راح أصحابه يلقون الضّوء على التّراث اللّغوي الغربيّ باحثين في الأفكار. فأصحابها توخّوا الحيطة والحذر في نقل المعارف بما يتجاوب وحضارتهم الناشئة، فكان لذلك أن يظهر 'المنهج التاريخي' بوسائله المتنوعة ليتعمق في تاريخ اللّغات وأصولها ويستحضر واقعها الأثري القديم ومثال ذلك انكبابهم على اللّغة 'السنسكريتية' التي مثّلت فجر الأبحاث اللّغويّة الأوروبيّة الحديثة. ليليه فيما بعد 'المنهج المقارن'، وهو لاشّك وسيلة مهمّة في الدّراسات اللّغويّة رآه الباحثون الغربيون الأجدر في استخلاص النتائج عبر المقارنة بين ما يضفيه الاستحضار التاريخي في حقول اللّغات المختلفة، وازداد الفكر اللّغوي الأوروبي رواجا في عهد 'فرديناند دوسوسير' صاحب 'المنهج البنيوي والوصفي' وما يعرف باللسانيّات البنيويّة واللّسانيات الوصفيّة؛ الذي راج رواجا هائلا في الدّراسات اللّسانيّة وخاصة في تبنّيه المنهج العلميّ للدراسة اللّغة، وجاء في رؤيته:

1-إضفاء الطابع التّجريدي على الدّراسات اللّغويّة.

2-التميز بين الدّراسات التزامنية والتعاقبيّة.

3-اعتبار علم اللّسانيات مورد العلوم اللّغويّة المجرّدة.

فاتفق المختصّون بأنّ هذا العَالِم القّذ أنار الفكر اللّساني الغربيّ بأطروحاته الجيّدة وباتت دراساته على الرّغم من قصر حياته تشكّل قاعدة البحث العلمي اللّغوي الحديث؛ فهو قدّم التعريف الكامل والصائب لعلم اللّسانيات في ظلّ التنافس التجريدي والموضوعي بين كافة العلوم فقد دعا: "إلى دراسة اللّغة في ذاتها"[23]، دراسة موضوعيّة علميّة.

لتتوالى حينها المدارس اللّسانيّة كمدرسة 'لندن' وحلقة 'براغ' وغيرها من المجامع البحثيّة اللّغوية الأوروبية، وهذا كلّه أسهم في بروز الطلائع الفكريّة اللّسانيّة المعاصرة ليتواصل الفكر اللّساني الأوروبي تحت راية أعمال أخرى، ومنه برز الفكر التوليدي في حاضنة أمريكا ببروز 'ناعوم تشومسكي' الذي أمست أعماله تمثّل قمة الفكر اللّساني الغربي المعاصر؛ فهو كما يصفه البعض: "يتعمّق البحث في منشأ قواعد اللّغة ويحاول تفسير ظاهرة تأليف الطفل تركيبات لغوية جديدة لم يسبق له تعلّمها،..وهذه الظاهرة شاهد على وجود

قدرة فطرية في العقل الإنساني على إنشائها تتسق مع تركيب الواقع الذي نعيش فيه وبذلك نكون أمام نظريّة جديدة في ربط اللّغة بالواقع وتفسير اللّغة في إطار فلسفيّ"[24].

وبعد هذا التفريغ المهم والمعمّم نأتي الآن للوقوف على ماهية التفكير ورواده الأوائل وأهمّ النّظريات البارزة في التّفكير اللّغوي:

أولا: التفكير لغة من فكّر يفكّر فكرا لمصدر التفكير؛ ومقاسه عملية ذهنية في غالبها تستهدف البحث عن إجابات مناسبة لما يعترض الذات من إشكالات.

وفي تعريف آخر: "قائمة من الأنشطة العقليّة تتضمّن كلاّ أو بعضا ممّا يلي: أحلام اليقظة الرغبات، الصور الخياليّة استيعاب الأفكار استعراض الأفكار اكتساب أفكار جديدة واستنباط نظريات واتخاذ القرارات"[25].

أما إذا أضفنا كلمة 'اللّساني' إلى التفكير فإنّ التعريف يصبح: التفكير المختص بمجال اللّغة أو العمليات الذهنية المستهدفة في البحث في علوم اللّسان المختلفة وهذا ما تجسّد في الفكر اللّساني الحديث.

وخلاصة ما قدّمناه أنّ الفكر اللّغوي الأوروبيّ منطلق البحث اللّغوي المعاصر؛ باعتباره نقطة تحوّل مهمّة في عالم اللّغويات الحديثة. فقد واكب هذا الجانب من العلوم النّهضة العلميّة في أوروبا محاكيا في ذلك التّطور الحاصل في علوم الطبيعة والصّناعة وغيرها من العلوم الدقيقة. فكان لزاما على أصحاب هذا الاتجاه أن يروّجوا له بأفكارهم وأعمالهم وخلصوا إلى إعداد النظريّات وصياغة القواعد باختلاف الأطروحات. فاعتبر ذلك مقدّمة تمهيديّة للنّهضة العلميّة في عالم اللّغة عامّة وحقل اللّسانيّات خاصة، وبالأخصّ عند ظهور العالم اللّغوي الكبير دوسوسير (Ferdinand de Saussure 1857-1913) الذّي يطلق عليه أبو اللّسانيّات الحديثة؛ فقد قدّم نظرة عامّة موسّعة حول الجّانب التّاريخي والوصفي والبنيّوي للّغة؛ متأثرا في ذلك بالوصف العلمّي الدّقيق الذّي تميّز به العلوم الدقيقة. لتتضح معالم فكره بوضوح في: (كتابه محاضرات في اللّسانيّات العامة- Cour DeLinguistique Générale) الذّي يوصف بأنّه نواة التحوّل الجديد في عالم اللّغات الذي ألّفه 'شارل بالي Charles Bally' و 'ألبير سيشيهاي Albert Sechehaye' بعد وفاته استعانة بما دونه تلاميذه في المحاضرات التي كان يلقيها عليهم. وعدّ هذا العمل ركيّزة الطرح اللّغوي المعاصر الذي تتبنّاه جميع المدارس اللّسانيّة والاتجاهات اللّغويّة الحديثة والمعاصرة.

ونتيجته أنْ ظهر إلى الوجود توجه علميّ حديث في السّاحة اللّغويّة العالميّة جَمْعاءٍ؛ هدفه دراسة اللّغة دراسة علميّة تُبنى على حقائق المعرفة ومعطيات التقنيّة، وهذا ما ترمي إليه اللّسانيات الحديثة في حلّتها العلميّة الجديدة.

الهوامش والمراجع

1-نعمان بوقرة، المدارس اللّسانيّة المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، 2003م، ص3.

2-عاطف مدكور، علم اللّغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، 1987م، ص6.

3-عبد السّلام المسدّي، التفكير اللّساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب تونس، ط2، 1986م ص9.

4-المرجع نفسه، ص10.

5-المرجع نفسه، ص9.

6-أنيس فريحة، نظريّات في اللّغة، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، ط2، 1981م، ص8.

7-محي الدّين محسب، اللّغة والفكر والعالم دراسة في النسبيّة اللّغوية بين الفرضية والتحقق، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1997م، ص41.

8-عبد الوهاب جعفر، الفلسفة واللّغة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنّشر، ط2، 2004م، ص16.

9-المرجع نفسه، ص16.

10-المرجع نفسه، ص16.

11-ينظر، أحمد مومن، اللّسانيّات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون، الجزائر، ط4 ص79.

12-ينظر، المرجع نفسه، ص80.

13-H,Osthoff and k, Brugmann, P,XII in G. Sampson, Op, Cit, 1878, p27.

14-Georges Mounin, la linguistiq du xxe sieele, PUF, 1972, P200.

15- ينظر، أحمد مومن، اللّسانيّات النشأة والتطوّر، ص83.

16-ينظر، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2010م، ص14.

17- ينظر، المرجع نفسه، ص14.

18-مدخل إلى اللّسانيّات، دار الكتاب الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص42.

19-ينظر، المرجع نفسه، ص43.

20-ينظر، عبد السّلام المسدّي، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيات، ص14.

21-ينظر، المرجع نفسه، ص14.

22-المرجع نفسه، ص17.

23-شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، ط1 2004م، ص9.

24-في فلسفة اللّغة، محمود فهمي زيدان، دار النّهضة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، 1985م، ص9.

25-جوديث جرين، التفكير واللّغة، ترجمة وتقديم، عبد الرحيم جبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م ص17.